سوسيولوجية القراءة :الإجراء والأداة
Psychology of redingprocedure and tool

فدوى سباع*
د. يوسف الأطرش♣

تاريخ الإرسال: 2020/08/05	تاريخ القبول: 16 / 09 / 2020	تاريخ النشر: 30 / 03 / 2021

الملخص:

بين الأدب وعلم الاجتماع علاقة قوية أفرزت تخصيص فرع في العلوم الإنسانية سمي "علم اجتماع الأدب" اهتم بدراسة الأدب كظاهرة اجتماعية، وتفرعت منه اختصاصات عديدة، خاضت في العلاقة بين الأدب والمجتمع، والسبل التي من خلالها تتضح خصوصيته بعد تلقيه، فأصبح في ضوء هذا التوجه مبنيا على فكرتين ؛ تتمثل الأولى في مفهوم الإبداع كصراع بين ذات الكاتب والذات الجمعية، أما الثانية فيمثلها دور القراء في توجيه هذا الإبداع ، وأدى التفسير الاجتماعي للأدب إلى ظهور توجه نقدي معاصر يعرف بعلم اجتماع القراءة، يجعل من القراءة شرطا أساسيا لضمان استمرار كل عملية إبداعية،فكيف تبلور هذا التوجه ؟ وما هي أهم مرتكزاته؟

الكلمات المفتاحية: سوسيولوجيا، قارئ، مجتمع ، كتاب، قراءة.

المؤلف المرسل: فدوى سباع sebaafouzi5@gmail.com

*جامعة العربي التبسيتبسة،sebaafouzi5@gmail.com
♣جامعة عباس لغرور خنشلة، lettlang@gmail.com

Abstract:

Betweenliterature and sociology a strongrelationshipwichit made a branch of humanitiesiscalled ‘’ Literature and sociology ‘’ itInterested in studyingliterature as a Social phenomenon, and branched out fromitmany branches, thathadstudied the relationshipbetweenliterature and andsociety and the waysthatclarify the characteristic of literatureafterlearningit, thenitbecamewiththis orientation built on towideas , the first one isrepresented in a concept of creativity as a conflictbetween the writerhimself and the collective self, the second is how to orient thiscreativityfromreaders,and Social interpretation gave rise to a contemporarycriticismisKnown as sociology of reading ; makereading a principal condition to carry on everycreativeoperation, so how isthis orientation formulated ? andwhat are itsfoundations ?

***Key words**:Sociology , Reader, Community ,Book , reading*

*** *** ***

تمهيد:

إذا كانت نظريات التلقي قد اهتمت بالجانب التاريخي للقراءة مع ياوس **hans Robert jauss** في نظرية جمالية التلقي، أو الجانب السيكولوجي لفعل القراءة كما عند إيزر**Wolf gang Izar** في نظريته الوقع الجمالي، فإن نظريات التفسير الاجتماعي للأدب أدت إل ظهور ما أصبح يعرف في النقد الأدبي المعاصر بعلم اجتماع القراءة، والتي تبحثفي الشروط المؤثرة لفعل القراءة، عبر التركيز على الإنتاج، والتوزيع، والاستهلاك، بمعنى أن القراءة السوسيولوجية هي قراءة تجريبية تدرس ثلاثة مكونات مهمة في عملية الإبداع وهي: «الإنتاج والتوزيع والاستهلاك»[1]فهي تهتم بالقارئ كونه المستهلك للإنتاج الأدبي، وأساس البحث فيها يقوم على التعرف على العلاقة بين القارئ والنص، عن طريق تحليل عملية القراءة وفق منهجية تعتمد على الإحصائيات، الاستجواب، المقابلات، الاستمارات التي يختبر بها الباحث عينة من مجتمع ما، انطلاقا من هذه المنهجية يستطيع معرفة كيفية استقبال نص ما، أو مجموعة من النصوص، أو عينات يمكن أن تختلف معها من حيث اللغة، ولا تكمن خاصية سوسيولوجية القراءة في مجرد إسقاط الظروف التي يتأسس عليها النص الأدبي والتي يتأثر بها القارئ لأنها؛

تعتمد على جملة من الخصائص التي تتعلق بفعل القراءة، فتهتم بالقارئ داخل النص، كما لا تهمل دور المجتمع في صقل وتوجيه ذائقته القرائية.

1.روبير اسكاربيت: العناصر المنتجة للأدب:

يعتبر روبير اسكاربيتRoberte scarilt (1918- 2000م) من أهم الباحثين في هذا الحقل، فقد طرح توجها نقديا يعني بالطابع السوسيولوجي للإبداع الأدبي، يبتعد عن البحث في العلاقة بين الأدب والواقع، إلى تبرير هذه العلاقة من خلال تحليل التفاعل المتبادل بينهما وفق ما يقتضيه توجه سوق الكتاب.

فالأدب عنده لا يمكن تفسيره بشموليته إلا بالنظر إلى الآليات المساهمة في إنتاجه وهي: الكاتب، الأثر الأدبي (النص الأدبي) والقارئ، والنص الأدبي ليس إنتاجا خاصا بالكاتب، وإنما هو مدين أيضا للشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تؤثر فيه، لذلك ركز اسكاربيت على دور الكاتب ولم يغفل دور الناشر، وطرق تسويق الكتاب بالنظر إلى السياق الاجتماعي الذي ظهر فيه، بالإضافة إلى رحلة الكتاب كمنتوج تعترضه عوارض تستطيع أن تمنحه الشهرة أو تقلل من شأنه، أو حتى تنفيه من الساحة الأدبية والمعرفية بشكل عام، بمعنى آخر: الكتاب يخضع لقانون السوق القائم على العرض والطلب، وبينهما الكثير من الحقائق التي قد تغيب عن الكاتب والقارئ معا، لعل أهمها - حسب اسكاربيت- اعتبار الكتاب مادة ربح قبل أن يكون مادة معرفة أو تذوق فني وجمالي.

تبحث سوسيولوجيا الأدب مع اسكاربيت في: «أولا سوسيولوجيا الكاتب وحرفة الأدب ومؤسساته، أي كامل مسألة الأساس الاقتصادي للإنتاج الأدبي، المنشأ الاجتماعي للكاتب ومركزه، مذهبه الاجتماعي الذي يجد تعبيرا عنه في نشاطات وبيانات تتجاوز الأدب، وهناك ثانيا مشكلة المضمون الاجتماعي، مرامي الأعمال الأدبية ذاتها وأغراضها الاجتماعية، وأخيرا هناك مشكلات الجمهور والتأثير الاجتماعي الفعلي للأدب»[2]، وعناصر الدراسة عنده تقوم على عدة اعتبارات هي:

1.1 الأدب مؤسسة اجتماعية: ما الغاية من سوسيولوجيا الأدب؟ هكذا عنون اسكاربيت الفصل الأول من كتابه (سوسيولوجيا الأدب)، مؤكدا أن الاهتمام بالأدب كظاهرة اجتماعية لا يعني البحث عن انعكاس الواقع داخل النص الأدبي، بل النظر إلى الأدب كحدث « يفترض وجود مؤلفين وكتب وقراء، أو بقول أعم يقتضي وجود مبدعين وآثار وجمهور»[3]. وهو يكون ميدان تبادل يربط أشكال التواصل بين الفن والتكنولوجيا والتجارة.هذا البحث عن عناصر التواصل هو تتبع لرحلة الأدب في مستوياتها المختلفة، وتحليل لأسباب مشتتة حاول النقد الأدبي حصر كل سبب لوحده، فلا الكاتب وحده قادر على اختصار الظاهرة الأدبية، ولا القارئ قادر على التعبير عن صوت الأدب، مادام كل واحد منهما يثير جملة من التساؤلات المفترضة سواء لحظة الكتابة أو لحظة القراءة ذلك لأن؛ الكاتب يضع في ذهنه قارئا من أجله يكتب، والقارئ يقابله بأفق انتظاره الخاص، والذي قد يتفق معه أو يخالفه ويتجاوزه، والحلقة المفقودة بينها هي ما يهدف اسكاربيت إلى ترميمها بسبب اختلاف مسألة التذوق والإحساس الأدبي ونوعية القراء أطفال، نساء، طلاب....، بالإضافة إلى طبيعة المجتمع التي تتحكم فيها مخلفات تاريخية و دينية، تخضع لظروف سياسية واقتصادية.هذه الحلقة المفقودة يجتمع فيها ما يمكن تسميته بأقطاب سوسيولوجيا الأدب وهي: الكتاب، الطباعة، التوزيع، التسويق، الإشهار، العنوان، الغلاف، الكاتب، الأنواع الأدبية، القارئ، الظروف الاجتماعية، التوجهات السياسية والاقتصادية، بالإضافة إلى ترسبات الإحداث التاريخية وتأثيرها في ثقافة المجتمع، كل هذه الأقطاب وغيرها كثير، تخلق ما يمكن تسميته "بظروف القارئ" التي تتجاذبها الصراعات الإيديولوجية بين الأمم، والتيارات الفكرية والمذاهب الدينية، واختلاف توازن القوى السياسية والتقدم التكنولوجي.

لقد أصبحت الحياة تعج بتسارع الأحداث وتنامي ظاهرة الانفتاح على العالم الرقمي، عالم كل ما فيه خاضع للماديات، تتحكم فيه فكرة الربح السريع بكل الطرق، والأدب ليس بمعزل عن هذا العالم، كيف لا ؟ وهو السلاح الخفي الذي يستطيع أن يبث بين سطور النص أفكارا لا تستطيع الجيوش العظيمة بقوتها بسطها بطريقة سهلة.

اعتمد اسكاربيت على فكرة مفادها «المجتمع كائن حي، تكثر فيه المؤثرات وتتعدد التفاعلات»[4] حتى يتمكن من تحليل الظاهرة الأدبية بأبعادها الاجتماعية، مجتمعة في قانون عام تعتمده البشرية جمعاء، من أجل تحقيق غايات متنوعة وهو قانون "المنفعة" الخاصة وما يكتنفه من أهداف تختلف باختلاف الزمان والمكان، لهذا كان من الضروري أن تكرس سوسيولوجيا الأدب جهودها حول دراسة وظيفة المؤسسة الأدبية داخل المجتمع، وتحليل العلاقات القائمة بين الأدب والمجتمع الذي يولد فيه.

أصبحت النظرة إلى الأدب كمؤسسة اجتماعية، لا تنحصر في الأدب والواقع، وإنما في الإنسان كمحرك وفاعل في هذا الواقع إن «الإنسان عالم صغير، وفي الواقع كلما تقدم العلم رأينا أن دراسة الإنسان هي خلاصة لدراسة الكون»[5]،إن ما يعتري العالم من أحداث متسارعة تستدعي استخدام وسائل معرفية متعددة، فالتغيرات الحاصلة في المجتمع مرتبطة بطريقة تفكير الإنسان، وتكيفاته مع الظروف المختلفة لتحصيل المعرفة، وتأتي القراءة كمؤثر في تحصيل هذه المعرفة «بعد أن يطلق الكاتب سراح النص، يبدأ وجوده الذاتي الصامت، إلى أن يأتي قارئ ويقرأه، لذا فإن جميع الكتابات تعتمد على سخاء القارئ الذي بيده اتجاهها»[6]، فبغض النظر عن الموضوع الذي كتبه الكاتب يظل القارئ هو هدفه الأسمى، وهنا يتساءل اسكاربيت هل كل ما يكتب مهم؟ مادامت المؤسسة الأدبية تعبد الطريق للإبداع الأدبي وفق درجة الاستهلاك والمنفعة منه، لذلك يقتضي الحديث عن الأدب النظر إليه كمشروع يخطط له على مستوى المؤسسات وعلى وجه الخصوص دور النشر كمؤسسة تستثمر في الأدب. تلك المؤثرات تجعل الكاتب مرغما على الخضوع لصفقة تستند إلى بنود قانونية، قد تنسجم ونواياه كمبدع، أو قد تخضعه للخوض في كتابة ما لا يؤمن به، سواء أكانت أفكارا تشتمل معتقدات ومبادئ، أو حتى توجها وميولا أدبيا.

2.1 الأدب إنتاج: إذا كان الأدب يوجه من طرف مؤسسة تعمل على التخطيط لحياته وبروزه إلى القراء، فقد أصبح وفق هذا التصور سلعة تنتج بمعايير محددة، وتستجيب لمواصفات معينة، تفرضها طبيعة المنتج من جهة، وخصوصية مستهلكيه من جهة أخرى، وهنا ينظر اسكاربيت إلى الأدب كسلعة تجارية، ويدعو إلى البحث عن

العلاقة بين الأدب كإنتاج، والقراء كمستهلكين يوجه إليهم هذا الإنتاج الملبي لأذواقهم المختلفة يقول:« إن الإنتاج الأدبي هو عمل جماعة من الكتاب الذين يخضعون، عبر العصور، لتغيرات شبيهة بالتغيرات التي تصيب الجماعات البشرية الأخرى كلها، كالشيخوخة وتجدد الشباب والاكتظاظ السكاني، والخلو من السكان....»[7]، فإبداع الكاتب خاضع لتغيرات تطرأ على واقعه الذي يفرز منتوجا يلبي مواصفات بمقاييس نابعة من طبيعة هذا المنتوج، ومن خصوصية الواقع الحاضن له.

«والأدب بهذا المعنى،مثله مثل أي بضاعة تجارية يمر بمراحل التصنيع والتوزيع والاستهلاك ويتأثر بالسوق الاستهلاكي وبقانون العرض والطلب»[8] إذ يعتبر اسكاربيت الأدب منتوجا اقتصاديا، وهذا ما يجعله مجرد بضاعة، تتدخل فيه وسائل التوزيع، ويعرض كباقي السلع الاستهلاكية لكن، السلع لا تتساوى من حيث الجودة والنوعية، والمستهلك هو من يجعلها مميزة حسب درجة إقباله عليها وعرضها للمنافسة والإثراء في الأوساط الثقافية، والدافع للاستهلاك يختلف من فئة اجتماعية إلى أخرى، ولعل الاختلاف في الدوافع إلى الاستهلاك يكمن في طبيعة الذوق الفردي والجماعي.

مفهوم السلعة يختلف باختلاف النظرة إلى المنتوج، ورواجه أو إخفاقه راجع إلى ظروف تطرحها الفئة المستهلكة، وهذا ما دفع اسكاربيت إلى اعتبار الأدب إنتاجا خاصا بفئة معينة سماها الجمهور باختلاف حاجاته لهذه السلعة، كالتعلم أو المطالعة أو تزيين مكتبة... الأدب عند اسكاربيت مهنة تدر المال، تحمل دوافع مادية أو معنوية «تفسح أمام صاحبها بعض أوقات من الفراغ من جهة، ولا تتطلب من جهة ثانية تكيفا صعبا مع الشروط المادية، والمعنوية المطلوبة في الخلق الأدبي»[9].

3.1 الكاتب: بالنظر إلى الجوانب المادية سواء من قبل الكاتب أو الناشر، تطرح قضايا عديدة تتعلق بدرجة انتشار القراءة، وهي متطلبات فعل القراءة في حد ذاته، وما يسبقه من مراحل، فلو حذف الناشر هل سنجد من يلبي حاجاتنا من المعاجم والروايات والشعر والملايين من أنواع الكتب في مختلف الأجناس الأدبية؟ لعل هذه الحاجة تبرر أحيانا الهدف التجاري لدور النشر، إذ لا يمكن الاستغناء عنها، وإن كان الهدف التجاري للناشر يتعارض مع الرسالة التي يحملها الأدب،لهذه الأسباب يرجع

اسكاربيت الإعلاء من شأن كتاب ما ولو كان مضمونه ضعيفا، أو العكس تجاهل كتاب ولو كان مضمونه ذا أهمية إلى درجة إقبال القراء على كتاب معينين ينجذبون إليهم لأسباب مختلفة يقول: «الكتاب أنواع، ليس من حيث اتجاهاتهم الفكرية، بل من حيث الطابع الغالب على إنتاجهم الذي يوفر لهذا النتاج عنصره الاجتماعي»[10]، فبعض الكتاب يتخصصون ويوجهون كتاباتهم لطبقة بعينها تهوى اختصاصهم، ومن هنا دعا إلى اعتماد التفريع لوضع كل كاتب ضمن توجهه الأدبي، من أجل تسهيل الوقوف عند مدى تأثير الأدب في المجتمع في فترة زمنية معينة، يقول: «يترتب علينا عند البحث تفريع هذه الظواهر الأدبية وتقسيم الكتاب وتصنيفهم استنادا إلى الاتجاهات، مما يسهل علينا تعيين طابع الظاهرة الاجتماعية تعيينا دقيقا في فترة معينة» [11]، وتسيير هذه العملية يتم من خلال مؤسسات، الكاتب عندها عامل يتقاضى أجرا على ما قدمه من إنتاج، ومن دون هذه المؤسسة لا يستطيع عرض إنتاجه فهو «يحتاج إلى موارد عيش، كما يحتاج إلى موارد تساعده على نشر مؤلفاته»[12]، إذ العلاقة بينهما علاقة تكامل، لا تستغني المؤسسة عن الكاتب، ولا يستطيع كاتب إيصال إبداعه وأفكاره دون مؤسسة تشرف على نشرها.

احتراف مؤسسة النشر لفنيات السوق، يعني اعتمادها على الإشهار بكل أنواعه من أجل التأثير على السلوك الاستهلاكي، باعتبارها طرفا بين المنتوج والمستهلك الموجه إليه، فهو الوسيلة الأكثر شيوعا في الترويج، وبغض النظر عن كونه نشاطا اجتماعيا، فهو وسيلة اقتصادية، تعتمد على الإقناع وجذب انتباه الجمهور والتأثير فيهم غبر وسائل الاتصال، مثل التلفزيون، والراديو والجرائد...، وبالرغم من تكلفته باهظة إلا أنه يعد أخصر طريقة للوصول إلى المستهلك، ففي لحظات قصيرة يبث الناشر «بحاسته التجارية متطلبات القارئ والسوق، ومن هنا يصبح الأدب إنتاجا كسائر المنتجات الأخرى يشكل مشكلة متعددة الوجوه والعوامل، ومتشعبة الأثر على الكاتب ونتاجه والتعريف بهذا المنتوج.

4.1 الجمهور: قسم الجمهور إلى جمهور مثقف وأخر شعبي، الأول يشارك في العملية الإبداعية لأن؛ الكاتب يحاوره من خلال أعماله لينتظر منه قراءة عميقة مفعمة

بالثقافة، بينما الجمهور الشعبي (العادي) يكتفي بالقراء السطحية وتدخل «الجمهور المثقف في حوار المؤلف المبدع ليس بممكن، إلا أنه موجود في الساحة، بينما الجمهور الشعبي باق خارج عنه، وعليه أن يكتفي بكلمات الحوار»[13]، ومن غير الممكن - حسب اسكاربيت- أن يبلغ الإبداع الأدبي مرحلة الانتشار والشهرة والتأثير إلا إذا اتحد الجهوران على الرغم من اختلافهما «فهو في الواقع مقسوم ومشعب إلى فرق اجتماعية وعرقية ودينية ومهنية وجغرافية وتاريخية ومدارس فكرية وجماعات أدبية »[14]، والناشر هو الذي يحدد متطلبات كل مجموعة ضمن مقتضيات السيرورة الاجتماعية، مركزا على خصوصية اللغة باعتبارها تنقل الخبرة والمعرفة من جيل إلى جيل، داخل المجتمع الواحد، أو من مجتمع إلى مجتمع، ويقصد باللغة؛ اللغة المعروفة الحقيقية والشاملة لانشغالات المجتمع وواقعه، لأنها شرط من شروط الحوار الأدبي فـ«الواقع مبني اجتماعيا، وأن اللغة هي عنصر أساسي في ذلك»[15].

لا يكتب الكاتب كي يحتفظ بإبداعه بين رفوف مكتبته، وإنما يكتب كي يتواصل مع ما يسميه اسكاربيت قرائه على اعتبار«أن أي أديب عندما يكتب يستحضر في وجدانه جمهورا ما ولو لم يكن إلا هو نفسه، فإن أي شيء لا يعتبر معبرا عنه إن لم يوجه إلى أحد»[16]، ويقصد بأحد الجمهور؛ القارئ الذي يجسد فعل القراءة باختياره لإبداع دون سواه، ومما لا شك فيه أن الإبداع بخصوصيته يحمل رسالة للمجتمع، يقترح لها حلولا أو يتجاوزها برأيه الخاص، فهو من موقعه كقائد في الصفوف الأولى لمثقفي المجتمع، قد يلجأ إلى الكثير من الوسائل لتوصيل أفكاره التي تحمل الكثير من الدلالات الموجهة إلى القراء، وهنا لا بد أن يتوفر الأدب على قدرة من اللذة التي سماها اللذة الجماعية يقول: «فكل لذة جماعية وبالتالي كل تبادل أدبي قد يصبح مستحيلا إذا فقد الجمهور ضمانة ومسافة يتيحان له أن يشارك»[17]هذه المشاركة بالقراءة هي التي تحدد مدى الإقبال على الإنتاج الأدبي الذي يختلف باختلاف«الهوية البيانية للقارئ»[18]فتصبح كتلة الجمهور القارئ خاضعة للتصنيف وفق الاستهلاك الأدبي، وهنا تتضح مهارات الناشر الذكي حين يحدد ما ينشر وفق درجة إقبال الجمهور، وحسب أغلبية الفئة المسيطرة في المجتمع، فيرجح الكفة أين يكون الاستهلاك واسعا، إنها خصوصية علم اجتماع القراءة التي

تمكنه من اعتماد الإحصاء المبني على ما يوفره الواقع من إمكانيات تعكس القدرة الشرائية للمستهلك، والتي تضع الكتاب من بين المقتنيات التي يمكن اقتناؤها رغم كل الظروف.

ومقياس النجاح الأدبي ليس هو مقياس النجاح التجاري «فتجاريا يتألف الجمهور الحقيقي الوحيد من شراء الكتاب،وبهذا المعنى نستطيع أن نقول: إن هناك أربعة مستويات للنجاح أو الفشل، أي عندما ينتهي بيع الكتاب بخسارة الناشر، ونصف النجاح عندما يعادل دخل الكتاب كلفته، والنجاح العادي عندما يتجاوز المبيع تقريبا مع تقديرات الناشر، وأفضل المبيع عندما يتجاوز الحدود المتوقعة ويفلت من المراقبة»[19].

يؤكد اسكاربيت أن جمهور الكاتب يختلف عن جمهور الناشر باختلاف الحافز لأن؛ الكاتب بمخيلته ينتج افتراضات متضمنة في النص قد تتوافق أو تختلف أو تتصادم مع توقعات القارئ، يستحضره الكاتب ويحاوره ويخضع في كثير من الأحيان للتقاليد الأدبية التي اتفق عليها المجتمع، أما الناشر فلا يهمه الإنتاج الأدبي «إلا بمقدار ما يدخل نطاق دورة الكاتب الاقتصادية»[20]، وعلى هذا الأساس يطرح إشكالية الدافع لشراء الكتاب كقضية نقدية تركز على حياة الأعمال الأدبية بالنظر إلى مصدر إحيائها، وهو فعل القراءة وما يحتويه من «الحوافز النفسية والظروف المادية التي تتحكم في القارئ »[21]، وقد قسم الحوافز إلى نوعين:

- الحوافز الوظيفية: لا تجعل من القراءة «وسيلة بل غاية»[22].
- الحوافز الأدبية: تنشد الكتاب ليعمل«كمخدر على الجهاز العصبي للحصول على أحاسيس معينة»[23].

وباختلاف غاية الاستهلاك للأدب، لم يعد نجاح الكتاب مقياسا لنجاح الكتاب، وإنما هو محصول مازرعه الناشر الذي يسعى إلى الربح التجاري، وفق الطلب الاجتماعي، ما يجعل الكاتب خاضعا لرغبات الجمهور القارئ، فيقدم إبداعه حسب الطلب ويكتب وفق المقاييس والألوان التي يريدها.

5.1 **القارئ و القراءة:** من خلال أنواع الجمهور ميز اسكاربيت بين نوعين من القراءة، القراءة العارفة والقراءة الذوقية.

الأولى قراءة واعية تهدف لتكشف القيم الجمالية في النص الأدبي، ينتهج القارئ فيها التساؤل والتماهي مع النص من أجل استنطاق الدلالات الخفية «وراء الزخرف ليدرك الظروف التي تحيط بالإبداع الأدبي، محللا مقاصده، محللا وسائله»[24]، فيدخل من خلالها القارئ إلى أعماق النص الأدبي يساعده في ذلك ثقافته وسعة تجاربه مع نصوص أخرى سبق وقرأها، إنها قراءة مميزة بتميز القارئ.

أما الثانية فهي خاضعة لجملة من المعطيات الخارجية التي يتدخل فيها الناشر. فحين يرصد هذا الأخير مدى تأثير الإنتاج الأدبي على القارئ ويجد إقبالا واسعا منه، يعمل وبمساعدة الإشهار والمعارض الأدبية ووسائل الإعلام بمختلف أنواعها على تحفيز الكاتب وتمديد عقده وتقديم كل وسائل الدعم لزيادة إنتاجه، فهذا النوع من القراءة تجاري، يتدخل فيه الذوق الموجه لا الذوق البريء.

اهتم اسكاربيت بالنظام الداخلي للنص وعلاقته بالقارئ وتطلعاته لفائدة القراءة ودور الأدب في حياته اليومية، كما اهتم بلحظة الكتابة وما تطلبه من شروط لرواجها، ولحظة القراءة وما تحتاجه للقبض عليها وتوجيهها، ليصبح فعل القراءة منتجا، يجب ضبط مساره، لا يقتصر هذا الفعل على تقصي حدود العالم الداخلي للنص الأدبي التي توفرها البنيات اللغوية، بل يتعداه إلى تحقيق تفاعل بين القارئ والنص مع مراعاة الزمن الذي يقرأ فيه ليتسنى للكاتب وقبله الناشر إدراك المدى الذي يستطيع النص الوصول إليه، وبذلك تصبح القراءة كما أراد لها اسكاربيت أن تكون فعلا إنسانيا منتجا لا يقل شئنا عن فعل الكتابة.

ركز اسكاربيت على أهمية الأسلوب بوصفه العامل الأساسي الذي وفقه يعلق الجمهور القارئ بشباك الإنتاج الأدبي لأن؛ الكاتب لا يمتلك إلا المفردات والتراكيب التي توظفها الجماعة للتعبير عن حاجاتها و«أوثق الوشائج التي تربط الكاتب بجمهوره المحتمل، إنما هي رابطة الثقافة والحقائق البديهية واللغة »[25] ، مما يعني أن الأسلوب هو الحامل لكل هذه البديهيات وهو القادر على إظهار الزمان والمكان دون معرفة الكاتب،

من منطلق « أننا لا نخترع فنا أدبيا، بل نطابقه على الضرورات الجديدة للفريق الاجتماعي»[26]، فالكاتب مهما بلغ إبداعه درجة الاختلاف والإبهار، لا يمكنه أن يفلت من سلطة البيئة التي يسميها اسكاربيت "القيمة الحية" لأنه؛ يكتب في ضوئها فكل« كاتب إذن أسير أيديولوجية وجمهور بيئته، فيمكنه أن يقبله أو يعدل فيه أو يرفضه كليا أو جزئيا إلا أنه لا يستطيع أن يتملص منه»[27]، ولا يعني هذا على الإطلاق اختزال النص في بيئته، لأنه يوجد جمهور قارئ خارج هذه البيئة، يسميه جمهور "المستقبل" له ذوق في القراءة دون أن يفرض شروطه على الكاتب «ففي الواقع وراء الحدود الزمنية والجغرافية يوجد جمهور كبير لا يستطيع أن يفرض على الكاتب أي قرار»[28]، هذا النص المسافر خارج الحدود الجغرافية عن طريق الترجمة التي تمنح له قراءات جديدة بريئة من الأيديولوجيا التي أنتجته إلا أنها تخضعه كـ«الظروف الذاتية»[29]لأنها؛ غير قادرة على «إدراك حقيقة الواقع الأدبي»[30] وهذه القراءات خاضعة لوجهات نظر نابعة من خصوصية المجتمع الذي هاجر إليه النص الأدبي، وخلال هذه الرحلة الرابح الأكبر هو القراءة، فالكاتب وإن ربح الشهرة، فالقراءة تصبح أكثر فاعلية لأنها تواجه الغريب والمجهول. تعدد اهتمامات سوسيولوجيا الأدب من الكاتب إلى الكتاب ثم القارئ جعلها تنقسم وفق عدة فروع «لتشكل علم اجتماع القراء، علم الاجتماع الكتاب، علم اجتماع الموزعين، وعلم الاجتماع الأنواع الأدبية، وعلم اجتماع الرواية،...،» [31] والفائدة المرجوة من هذا التخصيص هو طبيعة المنهج الإحصائي الذي يعتمد الدقة في عرض النتائج، فينطلق من الأعم (الأدب) إلى الأخص وما يعتريه من تأثيرات، ليحقق مع الظاهرة الأدبية قبل وبعد ظهورها، خاصة ونحن نعيش عصر التطور التكنولوجي، وطغيان الجانب المادي على كافة المعاملات البشرية.

بناء على ما سبق تبني سوسيولوجية القراءة أسسها على الإشكاليات التي طرحتها سوسيولوجيا الأدب، فالتغيرات الاجتماعية تؤثر على القارئ، وتكون حوافزا إما تجعله يقبل على اقتناء الكتاب، أو تكون كابحا ومانعا تجعله يعزف عنه، أو لا يتفاعل معه.

2.جاك لينهارت، القراءة و إنتاج الجمهور:

سوسيولوجية القراءة امتداد لبحوث اسكاربيت، وتميزها وخصوصية إجراءها يمكن في تعريف جاك لينهارتLeenhardt .j الذي ميزها عن غيرها « باعتمادها تحريات ميدانية لمعرفة كيف يفكر القارئ، وماذا ينتظر من العمل الأدبي»[32].

واستكمالا لأبحاث اسكاربيت نشر جاك لينهارت مقالة مهمة بعنوان (سوسيولوجيا القراءة) حول العلاقة بين الأدب وعلم الاجتماع مفادها؛ أن الأدب منتوج يوجه ليستهلكه المجتمع، وهذا الأخير هو سبب وجوده واستمراره، ولا يحدث هذا التمازج إلا من خلال القراءة.

وإذا كان النص يتحدد مصيره بفعل القراءة عند اسكاربيت فإن جاك لينهارتيوافقه حين يعتبر سوسيولوجية القراءة منهجا تجريبا يقيس به مدى سيرورة النص في ظل تفاعله مع القارئ، ومدى قدرة هذا الأخير على خلق تقاليد كتابية جديدة تفرضها طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه يقول: «يتمثل موقفي في تصور هذا المنهج ليس فقط كدراسة لشروط إنتاج النص الأدبي وصنعه، وهذا ما فعلته في قراءتي السياسية لرواية روب غريبه وما فعله غولدمان في كتابه المعروف الإله الخفي»[33]، فإذا كان غولدمان قد جمع بين ما هو لغوي وما هو نابع من الفكر الإنساني، وجعل القراءة تتصف بالإنتاجية وفق منهج البنيوية التكوينية، الذي يركز على ما هو لساني وما هو اجتماعي في آن واحد، فإن جاك لينهارت اهتم بالجانب الإجرائي المادي الذي يقوم على التحريات الميدانية المهتمة بالشروط النفسية والطبقة الاجتماعية للقارئ، ولا يتأتى هذا إلا من خلال بحوث ميدانية تعتمد الجانب الإحصائي، ما يجعل بحثه يتميز بالمعطيات المعرفية. وما دام العالم مشكلا من تعددية في الرؤى والمفاهيم، والقارئ خاضع لتغيرات على مستوى المفاهيم والمعتقدات، فإن إجراءات سوسيولوجية القراءة مشروعة، لأنها تستطيع إخضاع وجهات نظر متعددة للتحليل، ومعالجتها من زاوية ارتباطها الوثيق بالأدب، وتحديد هويته بالنسبة للمجتمع والكاتب والقارئ. ولأن القراء مختلفون،اهتم جاك لينهارت بالاختلاف الحاصل في طرائق التفكير وأيديولوجية القراء وتباينهم في الصفة المكانية والزمنية يقول: «إن تأملاتي التي تدور حول وظيفة القارئ في النص، تصدر عن الرسالة التي أجرتها طائفة من الباحثين في هنغاريا وفرنسا في آن معا...»[34]، والسؤال

الرئيسي لكل هذه البحوث يتصف بالأكاديمية والصرامة العلمية وهو: كيف يمكن للقراءة أن تؤثر على النص الأدبي من ناحية الرؤى الموضوعية والفكرية والجمالية؟

هدف سوسيولوجية القراءة «معرفة كيف يتعرض النص الأدبي للتحويل والتغيير»[35] وكانت المؤشرات المعتمدة سر اختلاف القراءات لنص في ثقافتين متباعدتين حضاريا وجغرافيا قائمة على أساس «العمر، والحركة الاجتماعية، والتعليم، والعضوية في مجموعة مهنية اجتماعية»[36]، وأما عن النصوص المقترحة فهي رواية الأشياءleschose للكاتب جيبيويسG. PEREC.أما الرواية الثانية فهي لـ:إي فخميس E.FEJES، مقبرة الصدأ razsclatemeto أما الملاحظات التي سجلها تندرج ضمن «أنظمة القراءة وبنية قراءة الفئات المهنية الاجتماعية، وطبعة الواقع الوطني»[37]، توصل البحث إلى نتيجة مفادها أن «القراء يشكلون جمهورا طبقيا لخصائصهم الديمغرافية الاجتماعية»[38]ا لتي تسمح بتحليل المرتكزات التي تقوم عليها القراءة في البلدين، وخلص البحث إلى أن القراء تختلف بحسب خبرة القارئ، وأهم النقاط التي استنتجها من هذه الدراسة تتمثل في تحديد أنواع الجمهور.

يقسم أنواع الجمهور إلى جمهور مخاطب جمهور وسط والجمهور الواسع، يسمي الجمهور الأول المحاور الحاضر في ذهن الكاتب، والذي لا يستطيع بناء موضوعه إلا إذا استحضره لحظة الكتابة، فمن أجله يكتب وهو عازم على إقناعه، وهو الرقيب الأول على نصه، يحث الكاتب على الحذف والإضافة فيما يكتب، «ولأجله يضع المؤلف صنيعه، وتتسم محاولة بالقصدية بغية إقناعه فهو: مفروض في أصول الخلق الأدبي»[39].أما الجمهور الوسط فهو الذي يشاركه الكاتب تفاصيل حياته اليومية بكل جوانبها النفسية والمادية وما يعتريها من تأثيرات، فهو يتقاسم معه همومه الاجتماعية والثقافية، وينتج عن هذه المشاركة إبداعه الأدبي يعبر عن كونه ينتمي إلى«هذا الجمهور يجسد همّه ورؤاه، ويتحمل رسالته، فهو لسان حاله، وكل صنيع لابد له أن يحمل هموم هذا الوسط وآماله ونبوءاته»[40]، وما يجمعه بهذا الجمهور عدة قواسم هي:

- اللغة؛ بوصفها وسيلة الاتصال المساهمة في التنشئة الاجتماعية للفرد

والجماعة، والعاكسة لهويتها كونها تعبر عن المنظومة الثقافية التي بها تعبر الحدود الجغرافية، فهي توجه الكاتب نحو أطر فكرية خاصة (لفظية ودلالية).

- الوطن؛ وهو الركيزة الأساسية التي تجمع نسقا اجتماعيا متباينا من حيث الثقافة والمستوى المعيشي ضمن حيز جغرافي واحد، فيه يتحدد مصير الفرد والمجتمع ومعه ينسج الكاتب نصوصه الممزوجة بذكريات ونفحات من تاريخ الوطن الذي عاش فيه بصفته جزء من هذا الوطن، ويعتبر الكاتب من الفئة التي مهمتها الدفاع عن قضايا الوطن من جهة وإيجاد حلول لقضاياه المتشعبة وفق نظرة مستقبلية.
- الدين؛ يهدف الدين لتنظيم حياة الأفراد وتوحيد المجتمعات وتقوية الروابط الإنسانية بين الشعوب، وهو بذلك يركز على الجوانب الروحية التي تتعدى حدود الوطن وعوائق اللغة بين البشر، والكاتب يرتبط مع مجتمعه بعلائق دينية تنطبع توجه سوكه وتفكيره، ليساير التوجه الروحي المميز لمجتمعه.
- الثقافة: تحديد مفهوم الثقافة أمر شائك نظرا لتعدد الرؤى التي تحاول تأطيرها، غير أن المحددات التي لا يمكن تجاوزها هي اشتمالها على العناصر المادية والمعنوية التي يكتسبها الفرد جراء اندماجه مع الواقع الاجتماعي الذي يعيشه يوميا، فتعمل الثقافة على توجيه الكاتب وتوضيح له طرائق التعامل مع مجتمعه، وتسمح له بالتميز بين أفراد مجتمعه.

و الجمهور الواسع هو الذي يتعدى الحدود الجغرافية المكانية وكذا الزمنية لحياة الإنتاج الأدبي، فبعد انتشاره في الوطن الأم وباللغة التي كتب بها أول مرة، يتحول إلى كائن عابر للقارات عن طريق الترجمة إلى لغات أخرى، محافظا على قيمته بالرغم من تغير الأجواء التي ارتحل إليها، وسبب تنقله هو الجودة والإقبال الذي لقيه في الوطن الأم، فيتعدى الجمهور الوسط ويعبر عنه لدى جمهور واسع شغوف بقراءة ما يستحق أن يقرأ.

خاتمة:

سوسيولوجية القراءة بحث ميداني يهتم بالقراءة كمقياس تجاري تؤثر على النص كما تؤثر على إنتاج الكاتب وتوجه إبداعه، تهتم بجمهور (القراء) من خلال التأكيد على الغاية الاجتماعية للأدب، بحيث أصبح البحث وفق إجراءاتها يتوجه ليتابع الكيفيات التي يتلقى بها الكتاب ومنه النص في ضوء الحياة الاجتماعية، وما فيها من أفكار

سياسية ودينية وطرق اقتصادية، حيث تسخر جميع المعايير الأدبية والشكلية والمضمونية في تصميم منهجا.

وكخلاصة للشروط الاجتماعية التي تؤسس لإنتاج النص وقراءته وما أنجر عنها من تحليلات نقدية حول مسألة القراءة عند اسكاربيت و جاك لينهارت يمكن تلخيص النقاط التالية:

- ✓ القراءة ليست اختيارا بريئا، حيث كل قارئ يقرأ وفقا لمصالحه وأهدافه.
- ✓ القراءة ظاهرة إنسانية وسمة مميزة للأعمال الأدبية تؤثر على درجة الإبداع.

ونوعيته وقيمه ومعاييره، وتتأثر بجملة من العوامل تجعلها متفاوتة من حيث القوة أو الضعف، تختلف من مجتمع إلى آخر.

- ✓ القراءة نشاط مكثف، يختلف باختلاف القراء في لملمة المعنى من النص، ففور عرض النص الأدبي للاستهلاك يصبح ملكا للقارئ في مواجهة قراءات متعددة.
- ✓ لكل مجتمع ظروفه الخاصة، بموجبها تتولد قوى تتحكم في حركة الأفراد والمؤسسات أو تطلق لها العنان، والقراءة شكل من أشكال الحرية، إذا كبلت انغلقت وتراجعت، وإذا ثمنت ازدهرت ونمت.
- ✓ تعدد الأيديولوجيات نتيجة تنوع الأفكار الدينية والسياسية وصدى التاريخ في المجتمع، يشكل نمطا خاصا من التفاعلات بين أفراد المجتمع، وينعكس حتميا على درجة الوعي ومستوى التفكير.
- ✓ السياسية وما ينجر عنها من تغيرات تؤثر على القراءة، فكلما حلت مرحلة سياسية معينة تعمل على زعزعة ثوابت قديمة أو ربطها بأخرى جديدة، فتعدل أو تمحو مفاهيم سائدة، والتغيير السياسي سواء أكان ماديا أو معنويا ينعكس على ثقافة المجتمع، كما ينعكس مستوى الثقافة ودرجة التقدم العلمي على القراءة وتقاليدها، إذ سؤال القراءة والثقافة يمس المتغيرات المعرفية على مستوى ما يراه المجتمع ثقافة وما يراه ضروريا وما هو عكس ذلك، فكلما كان المجتمع ممجدا للثقافة والتحصيل العلمي والمعرفي زادت جودة القراءة وفاعليتها، إذ يزداد تنافس الكتاب على تقديم الأفضل.
- ✓ ترصد سوسيولوجية القراءة سيرورة الإنتاج التي تحكم العملية من بدايتها إلى نهايتها، أي منذ أن يخطط الكاتب ويستحضر نوعية القارئ أو القراءة الذين

يكتب من أجلهم، وكيف سيتوجه إليهم، معتمدا على ما يضمن توجهات إستراتيجية مساعدة توجه مسلك كتابته، لتصل إلى القارئ الذي يحاول بدوره إنتاج نوع من القراءة المبنية على فهم صادر من شخصية كفرد داخل المجتمع، له عاداته في القراءة.

✓ إن هذا التعاون الإنتاجي بين النص وقارئه، يحمل سوسيولوجية القراءة مسؤولية رصد كل الفجوات التي تجعل القراءة (عند الكاتب أو القارئ) فعلا معقدا؛ هدفها ليس تقصي المضمون والاجتماعي إنما إنتاجه، فإذا كانت العملية القرائية تستقر في النهاية عند نوعية القارئ وإيديولوجيته، فإن التوقف عند حدود العالم الداخلي للنص الذي تنشئه المعطيات اللسانية والبنائية في النص الخالي من المرجعيات الاجتماعية، تكبح القراءة التي تطوق للوصول إلى نوع من الفهم المعقول أي؛ النص يحقق العملية التواصلية بالإحالة إلى العالم الخارجي، فكل نص كتب يريد أن يقول شيئا ما لأحد ما، لذلك اهتمت سوسيولوجيا القراءة بالقارئ ودمجته في العملية التواصلية لأنه الوحيد الذي -ومن خلال قراءته- يحقق مقصدية النص الاجتماعية التي ترى في الكتابة كما القراءة نشاطا إنسانيا منتجا وخلافا قابلا للتجديد مع كل طارئ يستجد على المجتمع.

5. الهوامش:

1جميل حمداوي، البنيوية التكوينية بين النظرية والتطبيق، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط1، 2016، ص: 13.

2ربنيه وليك، أوستن ووراين، ، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 3، لبنان، 1995، ص: 99.

3 روبير اسكاربيت، ، سوسيولوجيا الأدب، تر : آمال أنطوان عرموني ، منشورات عويدات، (د.ط)، بيروت، 1999، ص: 21.

4المرجع نفسه. ص: 5.

5المرجع نفسها

6 ألبيرتو مانغويل، تاريخ القراءة، تر: سامي شمعون، ط1، دار الساقي، لبنان، 2001، ص: 207.

7المرجع نفسه، ص:45

8 شكري عزيز ماضي، محاضرات في نظرية الأدب، دار البعث للنشر والتوزيع ط1، سوريا، 1981 ، ص: 129.

9 روبير اسكاربيت ، سوسيولوجيا الأدب، ص: 61.

10المرجع نفسه، ص: 11.

11المرجع نفسه، ص نفسها.

12المرج نفسه، ص: 13.

13 المرجع نفس ، ص: 106.

14آلن هاو، النظرية النقدية(مدرسة فرانكفوت)، تر: ثائر ديب، مجلة آفاق ثقافية، سوريا، العدد 32، كانون الأول، منشورات وزارة الثقافة، 2005، ص: 207.

15روبير اسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، ص: 107.

16المرجع نفسه، ص: 105.

17المرجع نفسه، ص: 106.

18المرجع نفسه، ص: 107.

19روبير اسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، ص 114.

20المرجع نفسه، ص: 114.

21المرجع نفسه، ص: 122.

22المرجع نفسه، ص: 123.

23المرجع نفسه، ص نفسها.

24المرجع نفسه، ص: 151.

25المرجع نفسه، ص: 107.

26المرجع نفسه، ص: 110.

27المرجع نفسه، ص: 108.

28المرجع نفسه ص: 110.

29المرجع نفسه ص:112.

30المرجع نفسه ص: نفسها.

31شكري عزيز ماضي، محاضرات في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، ط1، بيروت، 1993، ص: 125.

32 جاك لينهارت، سوسيولوجيا القراءة، مجلة الكرمل، فلسطين، العدد: 36-37، يوليو1990،ص: 66

33المرجع نفسه ص: نفسها.

34سليمان روبين ، إنجي سوزان و كروسمان، القارئ في النص مقالات في الجمهور والتأويل، تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2007، ص: 232.

35جاك لينهارت، سوسيولوجيا القراءة، ص: 66.

36سليمان روبين ، إنجي سوزان و كروسمان، القارئ في النص مقالات في الجمهور والتأويل، ص: 248.

37المرجع نفسه، ص: 249.

38المرجع نفسه الصفحة نفسها.

39روبير اسكاربيت، ، سوسيولوجيا الأدب، ص: 136-137.

40حبيب مونسي، القراءة والحداثة، مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية، ط1 ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2000، ص: 208.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊